البنية الصوتية في ضوء مقاربة النّظم الدينية والاجتماعية
"لهجة وادي سوف أنموذجا"

ط.د/ عماري مباركة

جامعة الوادي

إنّ اللغة البشرية لغزٌ حير الكثير من الباحثين والدّارسين منذ القدم، فاللغة ما هي إلاّ مجموعة من الأصوات المتجاورة والمترابطة فيما بينها، مكونة بذلك مجموعة من الألفاظ أو الجمل أو الصيغ أو التراكيب المعبرة عن ما يجول في خاطر وفكر المتكلم، ولكن مع مرور الزمن وتطوره والتفاعل الموجود بين أفراد المجتمع يُحدثُ للغة المنطوقة عدول وانحراف عن القواعد والقوانين التي تضبطها، فتصبح بذلك لهجة تختلف باختلاف المناطق الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والعادات والتقاليد وغيرها من الظواهر والنظم الاجتماعية المختلفة، وبهذا توجهت الكثير من الدراسات اللغوية نحو دراسة اللهجة بمناهج متعددة، وكان من بين تلك الدراسات أو المناهج منهج علم اللغة الاجتماعي الذي يكشف عن مدى تأثير المجتمع على اللهجة والعكس، ومن ثم نتساءل هل المستوى الصوتي للهجة مجتمع وادي سوف تأثر هو بدوره بالنّظم الموجودة في هذا المجتمع؟.

1- البنية الصوتية في ظل مقاربة النّظم الدينية: إن أي مجتمع يتكون من عدد كبير من الأفراد المتفاعلين داخله مع بعضهم بعض مشكلين كتلة واحدة لمجتمع يحمل نظما مشتركة فيما بينهم، ممّا يتولد عن ذلك التفاعل الديناميكي نظم وظواهر مختلفة، خاصة بهم تميزهم عن غيرهم من المجتمعات والأمم الأخرى.

فالنظم عبارة عن مجموعة من القواعد والأسس«والممارسات والإجراءات العملية والبناءات الرمزية التي تشمل معايير وقيم وعادات وتقاليد المجتمع وقوانينه وغيرها»[1]، أما اللغة فـ«تمثل تمثيلا صادقا البنية الفكرية الشعورية للجماعة اللغوية ومن الثابت أن هذه البيئة اللغوية ذات علاقة وثيقة بعقلية المتكلمين ونظمهم»[2].

ومنه لا وجود لنظم داخل المجتمع الواحد إلا بوجود اللغة، لأنها تترجم تلك النظم، ومن ثم فاللغة ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى، فهي تحمل في ذاتها كل خصائص النّظام الاجتماعي بكونها شديدة التأثير والتأثر مع غيرها من النظم الاجتماعية المختلفة، فللنظام التربوي مثلا له تأثير على اللغة، وللنظام الديني تأثير، وكذا النظام الاقتصادي له تأثير وأيضا لنظام السياسي والثقافي تأثير[3]...إلخ، ومن ثم فاللغة أو اللهجة عبارة عن ظاهرة اجتماعية تترجم من خلالها كل النظم الاجتماعية والثقافية التي يتفاعل معها أفراد المجتمع.

فالبنية اللغوية تتأثر بشكل سريع بالنظم الموجودة في المجتمع، وهذا ما أكدته الكثير من الدراسات الاجتماعية، بأنه لا يمكن دراسة«البنيات اللغوية الداخلية فقط، بل تنفتح على البنيات اللغوية الخارجية المرتبطة بالسياق التواصلي ومن ثم، تعنى اللسانيات الاجتماعية بتطور اللغة في سياق الاجتماعي معين، بالتركيز على التغيرات الصوتية والفونولوجية، والتغيرات الصرفية، والتغيرات التركيبية، والتغيرات الدلالية، والتغيرات الوظائفية»[4]، مظهرة بذلك علاقة التأثير والتأثر الموجودة بين اللهجة والمجتمع.

وبما أن لهجة وادي سوف كغيرها من اللهجات العربية الأخرى قد تتأثر بالنظم الموجودة في مجتمعها، من بين تلك النظم النظام الديني الذي يمثل« نقطة الارتكاز التي تدور حولها مظاهر الحياة الاجتماعية، فيه تسترشد، ومنه تنسج خيوطها وإليه تنسب وتعود وتأتي اللغة على قمة كل هذه المظاهر فهي العاكسة لحقيقتها والمعبّرة عن صورها، والمفصحة عن أساليبها وأنماطها»[5]، ومستوياتها، كالمستوى الصوتي الذي تأثر بالنظام الديني لبعض الألفاظ المنطوقة في لهجة مجتمع وادي سوف.

ومما نطق على ألسنتهم في هذا المجال خاصة أصحاب الطبقة المتعلمة لفظة "**صراط**" بالصاد نطقت عندهم كما وردت في قول الله تعالى:﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[6]، بينما نطقها البعض الآخر بصوت السين "**سراط**"، كما نطق البعض منهم صوت السين صادا، وذلك في قولهم: "هَاكْ **صِنَّارَهْ** "(خذ السينارة)، وقولهم أيضا: "**صَخَرْهُمْ** رَبِّي لِيَّا"، وكذلك قولهم:" شُفَتْ **سَارِقْ** هَاربْ"، وأصل هذه الكلمات في اللغة العربية تنطق بصوت السين، كما وردت في القرآن الكريم، في قوله تعالى:﴿اللَّهُ

الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾[7]، وأيضا قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَ﴾[8]، ولو تتبعنا جيدا هذه الظاهرة الصوتية الموجودة في تلك الكلمات التي تمثلت في ظاهرة الإبدال بين الصاد والسين، فإن حدوثها أمر طبيعي، لأن هذين الصوتين «كلاهما من الأصوات الأسلية يشتركان في المخرج وفي صفتي الهمس والرخاوة»[9].

ولكن لو نظرنا لهذه الظاهرة الصوتية من الناحية اللسانيات الاجتماعية، سنجد أن الجانب الديني أثر على الجانب الصوتي، وذلك بتأثر أهل مجتمع وادي سوف ببعض القراءات القرآنية المتوارثة لبعض القراء عبر الأجيال، لأن القراء بطبعهم اختلفوا في قرأتهم لهذه اللفظة، فهناك من قرأها بالصاد، كما وردت في القرآن الكريم، وهناك من قرأها بالسين كما فعل القارئ يعقوب[10]، وبهذا تأثر أهل وادي سوف بتلك القراءات، فنطقوا لفظة صراط بالسين والصاد.

كما نطق أهل وادي سوف لفظة" **فَـمْ**"، ويقصد بها "ثم"، فأبدلوا أثناء نطقهم الثاء فاء، فلو تتبعنا هذين الصوتين من الناحية الصوتية سنجد أن العلاقة بينهما تسمح بانتقال«أحد الصوتين إلى الآخر، فالفاء رخو مهموس، والتاء كذلك، وهما متقاربان مخرجا وصفة»[11]، وبالتالي الإبدال الذي حدث بين هذين الصوتين كان امتثالا للقوانين الصوتية، ولكن لو نظرنا إليهما من الناحية اللسانيات الاجتماعية، فهذه اللفظة تأثرت بالنظام الديني، والذي تمثل في ظاهرة التمسك بلغة الأصل لغة القرآن الكريم، حيث ذكر الله عزّ وجل في كتابه الكريم لفظة "فُومِهَا"(ثُومِهَا) بالفاء بدل الثاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[12]، ولو عدنا لتراثنا العربي الأصيل حول إبدال هذان الصوتان سنجد "ابن جني" يرى بأن صوت«الفاء أصلا وليست مبدلة عن الثاء»[13].

ويتضح في كلتا الحالتين السابقتين بأن أهل وادي سوف نطقا صوت الفاء بدل صوت الثاء، وذلك بسبب تأثرهم وتمسكهم بأصولهم العربية والمحافظة على نطقهم الأصلي لصوت الفاء، من خلال ما قُرِأَ في القرآن الكريم، وكذلك تأثرهم ببعض اللهجات العربية القديمة بهذا النّظام كلهجة« القبائل البدوية التي تميل في نطقها إلى صوت الثاء في حين تميل القبائل الحضرية إلى صوت

الفاء»[14]، ومن تلك القبائل التي نطقت هذه اللفظة بالفاء، كقبائل بني عدوان وقبائل بني سليم وغيرهم من القبائل المتواجدة في منطقة وادي سوف، حيث عرفت كلها بأنّها من القبائل العربية الأصيلة التي استقرت بها، وتمثلت في عرش أَولاَدْ سُعُودْ، وعرش أولاد جامع وغيرهم من العروش والقبائل المتواجدة في هذا المجتمع، وبهذا يدرك المتخصص بأنه هناك علاقة تأثير وتأثر بين النّظام الديني والبنية الصوتية للهجة مجتمع وادي سوف.

2- البنية الصوتية في ظل مقاربة النّظم الاجتماعية: يعترف علماء اللغة وعلماء علم الاجتماع، بأن فلسفة الحياة اللغوية والتواصلية، تبنى عن طريق التفاعل الموجود بين الأفراد داخل المجتمع، مما يتولد عن ذلك التفاعل علاقة بين اللغة والمجتمع، لأنّه لا يمكن أن تكون هناك علاقة بينهما لولا وجود وسيلة التواصل والحوار، والتي تمثلت في اللغة، ولا وجود للظواهر والنّظم الاجتماعية والثقافية لولا وجود المجتمع.

ومن ثم فالمجتمع في حد ذاته هو المصدر الأساسي والمشكل للبنية الاجتماعية التي تمثلت في«حضارة أمة، ونظمها، وعاداتها، وتقاليدها، وأعرافها، وعقائدها، وأنشطتها، وثقافتها العامة، واتجاهاتها الفكرية والعقلية والوجدانية، ويعني هذا أن اللغة تتطور بتطور الأمة حضاريا، كأن تنتقل من مرحلة البداوة نحو حضارة العمران والمدنية، أو تنتقل من مرحلة الطبيعة والغاب إلى مرحلة الدولة والقانون»[15]. ويتضح من كل هذا بأن التفاعل والديناميكية الموجود بين اللغة والمجتمع يؤكدان على«أنهما متلازمان وملتحمان وجودا وعدما، كل يعطي ويأخذ، وبقدر ما يكون هذا الأخذ والعطاء يكون نصيبهما من مدارج التأثير والتّأثر»[16]، ومنه فالمخطط التالي يوضح ذلك التفاعل الموجود بين اللغة والمجتمع:

الشكل رقم (01) : يوضح أثر التفاعل الديناميكي بين اللغة والمجتمع.

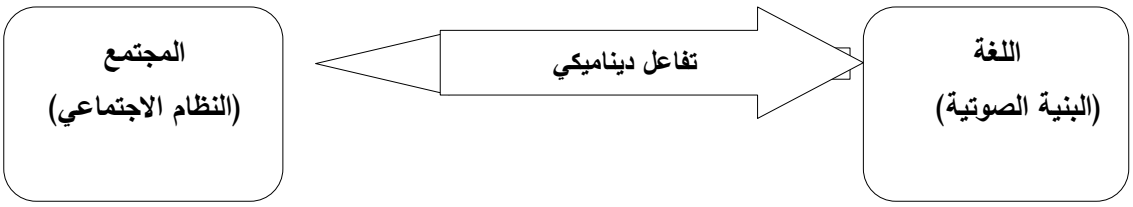

المصدر: ينظر كتاب كمال بشر علم اللغة الاجتماعي ص: 06.

وبهذا فالمجتمع يؤثر بشكل أو بآخر في البنية اللغوية، وللكشف عن العلاقة الموجودة بينهما، لابد من«ربط الهوية الاجتماعية للمتكلم بالهوية الاجتماعية للمتلقي ضمن سياق لغوي معين»[17]، منطلقين من واقع اجتماعي المعاش لهؤلاء الأفراد داخل المجتمع. وبهذا فاللغة تكشف عن حقيقتهم واختلاف طبقاتهم الاجتماعية التي ينتمون إليها بالتفاعل الدينامكي بين اللغة والمجتمع مما يؤثر هذا التفاعل على الجانبين مكونًا بذلك علاقة تأثير وتأثر، لأن البنية الصوتية للهجة بصفة عامة ولهجة مجتمع وادي سوف بصفة خاصة، قد تتأثر بالكثير من العوامل والظواهر والنظم الاجتماعية المحيطة بها، فمن الطبيعي أن يظهر ذلك التأثير على ألفاظهم أو كلماتهم خاصة من النّاحية الصوتية.

ومما نطق على ألسنتهم مثلا لفظة "**وَاخَظْ** عَنَّهْ"(إنتي ألْفْتُهُ), وأصل اللفظة في اللغة العربية (أخذ)، ومن ثم فإن اللهجة عادة ما تستغني«عن الهمزة طلبا للخفة, فتبدلها واو, فتبقى الألف التي بعد الهمزة المحذوفة, فتصير مدّا للواو، (واخذ), ومادامت اللهجة تميل إلي التفخيم فإن صوت الذال يتحول إلى ظاء»[18]. لتنطق اللفظة واخظ. هذا من الناحية الصوتية, أما من الناحية اللسانيات الاجتماعية والتي تكشف عن«التغيرات التي تصيب بنية اللغة استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة مع بيان هذه الوظائف وتحديدها»[19]، سنجد بأن الوظيفة الاجتماعية كان لها أثر واضح على هذه اللفظة, حيث نطق صوت الذال مفخما استجابة لتأثره بالبنية الجغرافية الصحراوية للمنطقة واتساع مساحتها التي فرضت نطق بعض ألفاظهم بأصوات مفخمة ومجهورة، لأن هذه الأصوات تكون«أوضح في السمع، تتلقاها الأذن في مسافة عندها قد تخفى نظائرها المهموسة»[20]. ومن ثم تأثرت هذه اللهجة بكونها«ظاهرة اجتماعية تتغذى وتنمو وتتأثر بمختلف العوامل الجغرافية المحيطة بها، فالطبيعة الجغرافية الصحراوية بخشونتها أدت إلى

نشأة لهجة مناسبة لهذه البيئة، والطبيعة الشمالية بليونتها أدت إلى نشأة لهجة رقيقة ليّنة تتماشى والمناخ الشمالي»[21]، ومن هذا المنطلق تأثرت البنية الصوتية للهجة مجتمع وادي سوف بالبيئة الجغرافية من خلال الأفراد الذين يعشون في هذا المجتمع.

كما أن عامل الانتقال والتوارث اللغة أو اللهجة بين الأجيال عبر الزمن كان له دور في التأثير على لهجة مجتمع وادي سوف، فنطق صوت القاف في بعض ألفاظهم (G) كقولهم لفظة "**ڤَلَبْ**" (قلب) ولفظة "**ڤِصَيرْ**"(قصير)، ولفظة "**ڤَصَعَهْ**"(قصعة)، فكل هذه الألفاظ نطقت بصوت (ڤ) بدل القاف، وإن هذا الأمر من الإبدال تحدث عنه "ابن خلدون" في كتابه "المقدمة"، فهو يرى بأن أهل مضر نطقوا صوت القاف من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، وبالتالي نطقها عندهم متوارث جيل عن جيل، حيث تنطق بين الكاف والقاف[22]؛ أي كافا مجهورة (ڤ)، وبهذا يمكن أن تكون هذه اللهجة قد تأثرت بالنظام الاجتماعي، من خلال عامل التوارث اللهجات بين الأجيال، فنطق هذا الصوت كما نطقه أهل مضر، وخاصة أن أهل هذه اللهجة يعدون من القبائل الوافدة من شبه الجزيرة العربية.

ومن التأثيرات البنية الاجتماعية المختلفة على البنية الصوتية للهجة مجتمع وادي سوف تم انعكاس عامل اختلاف اللهجات الاجتماعية كـ«اختلاف طبقات الناس وفئاتهم فتكون ثمة لهجة للمتعلمين تختلف عن لهجة الأميين»[23] مثال عن ذلك قولهم: لفظة"**وَاجَبَهْ**"(جَاوَبَهُ) و"**شَمسْ**"(سَمْشْ) وكذلك "**تَـرنْـهْ**" (ترى أنّه) و"**دحْمسْ**" (ظلام دامس) وغيرها من الألفاظ التي نطقت متأثرة بفئة بعض الأميين غير المتعلمين وكذلك فئة كبار السن منهم، الذين يجدون صعوبة في نطق بعض الأصوات داخل تلك الكلمات مما يجعلهم يحدثون فيها قلبا أو حذفا أو إبدالا ويحدث ذلك التغير الصوتي من أجل التسهيل في النطق، وبما أن هذه الفئة الناطقة لهذه الكلمات جزء من هذا المجتمع الصحراوي، فإنه يترك تأثيره بشكل أو بآخر في أصوات تلك الكلمات المنطوقة، مما يساهم هذا التأثير في ظهور الاختلافات الإقليمية واللغوية الموجودة بين الشّعب الواحد[24]؛ أو بين القبائل سواء البدوية أم الحضرية.

كما أن الفرد السوفي قد نطق بعض ألفاظه محذوفة في بعض أصواتها، ولكن دون أن يحدث لها تغير في معناها، وكان أكثر الأصوات شيوعا في الحذف صوت الهمزة كلفظة **خُوكُ**(أَخُوكَ)، وكذلك **بِدَى** (أحمد)، لأنّ هذا الصوت تأثر بالجانب الاجتماعي المتمثل في أعضاء نطق الإنسان، لأن الفرد الناطق لهذا الصوت هو الذي يؤثر فيه كيف ذلك؟، فالناطق لهذا الصوت يجد فيه صعوبة ومشقة في نطقه من الحنجرة، وذلك بسبب طبيعة المنطقة الصحراوية الجافة، مما يتطلب بذل مجهود عضلي أثناء نطقه فيضطر إلى حذفه أو إبداله.

وبهذا يكون الفرد قد أثر في نطقه على هذا الصوت، كما أن مجتمع وادي سوف مجتمع صحراوي بطبعه ينتمي إليه الكثير من القبائل البدوية المختلفة، وتلك القبائل تميل للسرعة أثناء الكلام وهي في الحقيقة«صفة تكاد تكون ملازمة للهجات البدو عموما»[25]، مما يجعلهم يحذفون بعض من الأصوات أثناء كلامهم من أجل التسهيل في النطق، خاصة صوت الهمزة الذي أصبح صفة متميزة في حذفه لدى بعض اللهجات العربية البدوية، بينما بعض اللهجات العربية الحضرية حافظت في نطقها على صوت الهمزة في بعض كلماتها، وهذه المحافظة كانت رمزا« للتحضر والرقي ورقة الطبع وما يتعلق بذلك»[26]، ومن ثم أثر هذا الجانب الاجتماعي المتمثل في البدو والحضر على نطقهم لهذا الصوت.

وفي الأخير يتضح وجود علاقة تأثير وتأثر بين اللهجة والمجتمع من خلال النّظام الاجتماعي الذي أثر في البنية الصوتية للهجة مجتمع وادي سوف؛ وذلك بتأثر أصحابها بعامل الانتقال والتوارث بين الأجيال، مما جعلهم يتمسكون بلهجتهم الأصلية، وخاصة أن لهجة هذا المجتمع تنتمي بشكل أو بآخر للهجات العربية البدوية القديمة بشبه الجزيرة العربية.

وصفوة القول يتضح بأن للنظم الاجتماعية تأثيرا كبيرا على البنية الصوتية، ولا يتم هذا التأثير إلا بوجود مجتمع متفاعل مع بعضه بعض حتى تتأثر اللهجة به، خاصة على مستوى الأصوات التي هي أكثر عرضة لذلك التأثير، وبهذا فإن العلاقة بين النظم وبين الصوت علاقة وطيدة ومتكاملة.

الهوامش:

1- معمر داود: مدخل إلى علم الاجتماع، دار طليطلة، الجزائر، ط1، 2010م، ص: 64.

2- كريم زكي حسام الدين: اللغة والثقافة دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، دون دار نشر، (دب)، (دط)، (دت)، ص: 39.

3- ينظر: أحمد بن نعمان: التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1981م، ص68-70.

4- جميل حمداوي: اللسانيات الاجتماعية، شبكة الألوكة، http://www.alukah.net/authors/view/home/3835

5- كمال بشر: علم اللغة الاجتماعي مدخل، دار غريب للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، مصر، د.ط، د.س، ص:14.

6- سورة الفاتحة: الآية 06.

7- سورة الجاثية: الآية 12.

8- سورة المائدة الآية 38.

9- بلقاسم لعرج: بلقاسم لعرج: الدارجة الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى دراسة لسانية للهجة بني فتح "جيجل": مديرية النشر للجامعة قالمة، الجزائر، (د.ط)، 2008م، ص: 74.

10- ينظر: إبراهيم أنيس: في اللّهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2002م، ص: 113.

11- أحمد علام الدّين الجندي: اللّهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، د.ط، 1983م، 417/2.

12- سورة البقرة: الآية 61.

13- أحمد علام الدّين الجندي: اللّهجات العربيّة في التراث، ج2، ص: 417.

14- حسام البهنساوي: العربية الفصحى ولهجاتها، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2004م، ص: 149.

15- جميل حمداوي: اللسانيات الاجتماعية، ص: 12.

16- كمال بشر: علم اللغة الاجتماعي مدخل، ص: 06.

17- عبد الكريم بوقرة: علم اللغة الاجتماعي مدخل نظري، http://www.alukah.net/authors/view/home/3835

18- نور الدين مهري: معجم الفصيح في لهجة وادي سوف، سامي للنشر، الوادي، الجزائر، ط1، 2016م، 117/1.

19- كمال بشر: علم اللغة الاجتماعي مدخل)، ص: 47.

20- إبراهيم أنيس: في اللّهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2002م، ص: 94.

21-سهام مادن: الفصحى والعامية وعلاقتها في استعمالات الناطقين الجزائريين، كنوز الحكمة، الأبيار، الجزائر، ط1، 2011م، ص 37.

22- عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، اعتنى به: مصطفى الشيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2012م، ص: 625.

23- هادي نهر: علم اللغة الاجتماعي عند العرب، جامعة المستنصرية، العراق، ط1، 1988م، ص:177.

24- ينظر: بلقاسم بلعرج: الدّارجة الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى دراسة لسانية للهجة بني فتح"جيجل"، ص: 11.

25-غالب فاضل المطلبي: لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة،دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، د.ط، 1978م، ص:211.

26-أحمد الشارفي:اللغة واللهجة مدخل للسوسيولسانيات العربية، كلية علوم التربية، الرباط، المغرب، ط1، 2017، 121/1.